# الـبـاب الأول

# ما هي فلسفة التـاريـخ ؟

- الفصل الأول : معنى التاريخ .
- الفصل الثانى: التاريخ كعلم .
- الفـصل الثالـث: التـاريخ وفلـسفة التاريخ .

**- تمهيد :**

عُرفت " فلسفة التاريخ " [1] كمبحث مستقل فى القرن السابع عشر، ثم تحددت معالمها فى القرن الثامن عشر الذى شهد العديد من فلاسفة التاريخ، أمثال "ڤيكو" Vico (1668 – 1744) و"مونتسكيو " Montesquieu (1689 – 1755) و " ڤولتير " Voltaire (1694 – 1778) و" كوندرسيه " Condorcet ( 1743 – 1794) و" هردر " Herder ( 1744 – 1803) وغيرهم. وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته فى القرن التاسع عشر – حتى ليمكن أن نطلق عليه اسم "عصر التاريخ " – على يد أعلام هذا القرن أمثال " هيجل " Hegel ( 1770 – 1831 ) و " كونت " Conte ( 1798 – 1857 ) و " ماركس " Marx ( 1818 – 1883 ) [2].

ويمكن أن ننظر إلى " فلسفة التاريخ " بمنظورين أساسيين – كما يرى "هيجل " – المنظور الأول يجعلها دراسة لمناهج البحث، أعنى للطرق التى يمكن أن يُكْتَب بها التاريخ وكيفية التحقق من صحة الوقائع التاريخية، والكشف عن مدى صدق الوثائق، ومناقشة فكرة الموضوعية فى التاريخ .. إلخ؛ أعنى باختصار فحصًا نقديًا دقيقًا لمنهج المؤرخ. لكن هناك منظوراً آخر لـ" فلسفة التاريخ " وفيه لا يدرس الفيلسوف مناهج البحث فى التاريخ، وإنما يقدم وجهة نظر عن مسار التاريخ ككل [3].

وتدعو الروح الفلسفية إلى اكتشاف القوانين التى تسير عليها الأحداث فى "التاريخ"، والمبادئ العامة التى يخضع لها التطور السياسى والحضارى فى دوائر الحضارات المختلفة أو فى الأمم، وإلى اكتشاف العوامل الفعالة فى مجرى "التاريخ": اقتصادية كانت أو روحية أو دينية أو نفسية تتعلق بإرادة القوة وبسط السلطان .. إلخ؛ وتدعو إلى البحث فيما إذا كانت هناك مسارات

محددة لتوالي الأحداث، وهل ثمة اتجاهات يتخذها التاريخ العام للإنسانية نحو التقدم أو التقهقر، أو السير فى دوائر مقفلة متوالية ومستقلة [4].

والأمثلة على التواريخ المكتوبة بروح فلسفية عديدة نذكر منها فى العصر القديم " ثيوكيديدس " Thucydides ( 460 – 395 B.C. ) ، وفى عصر الآباء نجد القديس " أوغسطين " Augustine ( 354 – 430 ) فى كتابه " مدينة اللّه"، وفى العصر الوسيط " يواقيم الفلوري " Joachim of Fiore ( 1135 – 1202 )، وفى الفكر الإسلامى نجد " ابن خلدون" ( 1332 – 1406 ). وفى عصر النهضة " جان بودان " Jean Bodin ( 1530 – 1596 )، وفى القرن الثامن عشر ما كتبه "مونتسكيو" فى كتابه "روح القوانين" و" انحلال الرومان "، وما كتبه " إدوارد جيبون " Edward Gibbon ( 1737 – 1794 ) فى كتابه " انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ". وفى القرن التاسع عشر ما كتبه " يعقوب بوركهارت " Jacob Burckhardt ( 1818 – 1897 ) عن عصر النهضة فى إيطاليا وخصوصاً كتابه " تأملات فى التاريخ ". أما القرن العشرين نجد " اشبنجلر " – 1936 ) Spengler ( 1880 وما ذكره فى كتابه العظيم " انحلال الغرب "، و" أرنولد توينبى" Arnold Toynbee ( 1889 – 1975 ) فى كتابه " دراسة فى التاريخ ". و" بندتو كروتشه " Benedtto krochh ( 1866 – 1956 ) فى كتبه العديدة ودراساته عن " التاريخ "، وبصفة خاصة " تاريخ إيطاليا"[5]

* * * *

## الفصل الأول

# معنى التاريخ

ما المقصود بدراسة "التاريخ" ؟ وهل تستحق هذه الدراسة كل ما تبذله الأمم والحضارات فى سبيلها من عناء وجهد؟ وهل يستدعى مضمون " التاريخ " الغور فى أعماقه إلى هذا الحد؟ وما الذى يمكن أن نفيد به من دراسة " التاريخ " وكتابته؟. وفى محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات يحسن بنا أن نشير أولاً، إلى ما يمكن أن تدل عليه كلمة " التاريخ " [6].

تدل كلمة " التاريخ " على معانٍ متفاوتة، فيعتبر بعض المؤرخين أن " التاريخ " يشتمل على المعلومات التىً يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله، بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها " الأرض " [7]، وما جرى على سطحها من حوادث بشرية. لكن يقصر أغلب المؤرخين معنى " التاريخ " على بحث واستقصاء حوادث الماضى، كما يدل على ذلك لفظ Historia المستمد من الأصل اليونانى القديم، أى كل ما يتعلق بالإنسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والأرض [8]؛ بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى ألَّمت بالشعوب والأفراد. وقد تدل كلمة " تاريخ " أيضاً على مطلق مجرى الحوادث الفعلى الذى يصنعه الأبطال والشعوب، والتى وقعت منذ أقدم العصور، واستمرت وتطورت فى الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر [9].

معنى هذا ، أن الكلمة ذاتها تُطلق على الماضى الإنسانى تارة، وتارة أخرى تطلق على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضى ورواية أخباره، أو العلم

المعنِى بهذا الموضوع. ويظهر أن الذهن البشرى ينتقل بين المعينين دون تمييز دقيق بينهما. فنحن نرى هذا اللبس ذاته فى اللغات الأجنبية، فكلمة Historie الفرنسية، و History الانجليزية، و Geschichte الألمانية تستعمل للمعنيين على السواء، إذ يراد بكل منها أحياناً حوادث الماضى وأحياناً أخبار هذه الحوادث أو العلم الذى يحققها. وقد حاول بعض الباحثين الغربيين محاولات شتى للتمييز بين المعنيين: فأطلق البعض على كلمة Historien "التاريخ" الدال على أحداث الماضى، ودخلت اللغة الألمانية عن طريق اللغة اللاتينية فى القرن الثالث عشر بكلمة Historia [10] لتعنى العلم الذى يحقق أحداث الماضى [11].

أما الكلمة الألمانية Geschichte وهى كلمة ألمانية قومية، ومشتقة من الفعل Geschehen بمعنى يعمل أو يحدث أو يقع، تعنى أصلاً " حدث " أو سلسلة من الأحداث، لكنها ابتداء من القرن الخامس عشر تساوت مع كلمة " التاريخ " Historie وأصبحت تعنى الرواية أو التقرير. ومع نمو البحث التاريخى والمعرفة التاريخية فى القرن الثامن عشر أصبحت تعنى – بصفة خاصة عند " هردر " – " التاريخ " بوصفه بحثاً منظماً للأحداث الماضية. وقد تأثر استخدام " هيجل " للكلمة بقرابتها مع Geschick و Schicksal والتى تعنى " القدر " وتشابهها مع كلمة Schicht والتى تعنى " الطبقة "، وعلى ذلك فلكلمة " التاريخ " معنيان: سلسلة الأحداث التاريخية وتفسير أو دراسة هذه الأحداث [12].

وفى اللغة العربية، فإن الفعل من المصدر " تأريخ " هو " أرخ " فى لغة قيس، بينما فى لغة تميم " ورخ ". وقيل إن " التاريخ " الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، و " تاريخ " المسلمين أرخ من زمن الهجرة، كُتب فى خلافة " عمر رضي الله عنه ، فصار تاريخاً إلى اليوم [13]. وهناك فرق كبير بين كلمة " تاريخ " بالألف اللينة ( بدون همزة

على الألف ) والتى تدل على الماضى ذاته، وكلمة " تأريخ " بهمزة عليها والتى تدل على دراسة الماضى [14] .

وكلمة " تأريخ " هى تعريف مباشر للكلمات " ماه روز " الفارسية ، والتى تعنى حساب الشهور والأيام، أو التوقيت الزمنى الذى يتم حسابه بناءً على ظهور القمر واختفائه. ويلحظ " فرانز روزنتال " [15] أن كلمة "تأريخ " لا تظهر فى الأدب الجاهلى، كما أنها غير مذكورة فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث النبوية الشريفة. وهو يرجح أن أصولها مستمدة من الكلمة السامية التى تعنى القمر أو الشهر وهى فى الأكادية " أرخو "، وفى العبرية " يرخ " [16].

على أن هناك فى اليونانية كلمة Archê " أرخى " بمعنى بداية أو حكم، و "أرخايوس " Archaios بمعنى قديم، معنى هذا أن " التاريخ " هو ذكر لقديم الأحداث والأخبار وبداياتها. ويسمى علم الآثار القديم بـ " الأركيولوجيا " Archelology، ويُسْتَعمل اللفظ اليونانى بعد دخوله اللغات الأوروبية بمعنى " الأصل " أو " الأصيل "، فيقال Archtype أى النموذج الأوَّلى أو الأول، أو لفظ Archbishop بمعنى الأسقف الكبير؛ وكان يراد به الأسقف الأصيل ومن بعده يتبعه. وفى مصطلح الديانة المسيحية يُوْصَف جبريل عليه السلام بأنه " الأركانجل " Arcangel وأصله Archangel [17] .

و" التاريخ " و" التأريخ " و" التوريخ " يعنى – كما يقول المؤرخ العربى "السخاوى " [18] – " الإعلام بالوقت ، وقد يدل تاريخ الشىء على غايته ووقته الذى ينتهى إليه زمنه، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة. وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال

العارضة للإنسان وفى الزمان ". ويقول أيضاً: " التاريخ هو التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة عقل وبدن، ورحلة وحفظ وضبط وتدقيق وتجريح وما أشبه هذا مما مَرجعُه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق فى الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملِمَّة وتجديد فرض، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة. وربما يُتوسَّع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة ومقدماتها ..... أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مُشاهد، أو خفى سماوى كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضى كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون ... وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام " [19].

ويرى " السخاوى " أن " التاريخ " لا يمكن ان ينفصل عن غيره من سائر العلوم الأخرى، خاصّة علم " السياسة " و" الأخلاق " و" تدبير المنزل " وهو يقول: " يستفاد من أنباء هذا الفن، ما لعله مندرج فى علوم أخرى كـ " علم السياسة "، وهو " العلم الذى يذكر فيه أخبار الملوك وسياساتهم، وأسباب مبادئ الدول ثم سبب انقراضها وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها وأشباهها فى العالم ". و" علم الأخلاق " الذى " يعلم منه أنواع الفضائل، وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها ". و"علم تدبير المنزل " الذى " يعلم منه الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجه وبلده وخدمه ووجه الصواب فيها ". ويسير على هذا النهج "الكافيجى"[20] فى تعريفه لـ " التاريخ " بأنه " علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته " [21].

ويذكر " ابن الأثير " [22] فوائد " التاريخ " فيقول: " إن الملوك ومن إليهم

الأمر والنهى إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحدوثة، وخراب البلاد وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها واعرضوا عنها وأطروحها. وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل ... استحسنوا ذلك ورغبوا فيه وظهروا عليه وتركوا ما ينافيه " . ومن فوائد " التاريخ " أيضاً: " ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها" [23] .

أما " الجبرتى " [24] فيقول : إن " التاريخ " " علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم " [25].

ويقول " ابن خلدون " فى مقدمته: " فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال، وتُشَدّ إليه الركائب والرحَّال وتسمو إلى معرفته السَّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال؛ إذ هو فى ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال وتُضرب فيها الأمثال، وتُطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان لهم الزوال. وفى باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق " [26].

وهذه عبارة تدل على فهم لطبيعة " التاريخ " ووظيفته فهو " فى باطنه

نظر وتحقيق " أى تفكير فى طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم، وبحث عن أسباب الحوادث وتحليل لنتائجها، فهو على هذا – كما يقول ابن خلدون – "أصيل فى الحكمة [27] عريق، وجدير بأن يعد فى علومها خليق ". لكن يستوقف النظر أن " ابن خلدون " ينظم "التاريخ" فى سلك الفنون لا العلوم، لكنه عاد فعقد فصلاً عن " فائدة التاريخ " سماه " فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شىء من أسبابها ". ويبدأ هذا الفصل ذاته بقوله: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط " [28] .

ولخص " هرنشو " [29] فى كتابه " علم التاريخ " معان التاريخ على ثلاثة:

**المعنى الأول:** يُطْلَق لفظ " التاريخ " على " مجرى الحوادث الفعلى " وهو الاستعمال الذى يفضى إلى الحديث عن صانعى الأحداث التاريخية والرجال الذين غيروا بأعمالهم مجرى التاريخ وشئون العالم كـ" الاسكندر الأكبر "، و" قيصر "، و" نابليون "، كذلك الحديث عن سلطان " التاريخ " بمعنى سلطة الأحداث والظروف التى أدت إلى وقوعها [30].

**والمعنى الثاني للفظ " التاريخ "**: هو " التدوين القصصى لمجرى شئون العالم كله أو بعضه " واستعمال " التاريخ " بهذا المعنى استعمال لا غبار عليه، وهو أهم استعمالاته. فلدينا " تاريخ إنجلترا " و" تاريخ فرنسا "

و"تاريخ ألمانيا "، كما لدينا أيضاً " تاريخ " الفن والعلم والأدب، كذلك لدينا "تاريخ " أى شىء أو كل شىء تطور على مر الزمن وخَلَّفَ وراءه آثار تطوره. وإن كان هذا الاستعمال – فيما يرى " هرنشو " – مستقيم وشائع، إلا أنه يفضى إلى شىء من اللبس يمكن الالتفات إليه حينما يكون النقاش مثاراً حول: هل التاريخ علم أم فن؟ فإذا قلنا إن " التاريخ " قصة فهو أدخل في باب الإنشاء الأدبى منه إلى باب التأريخ أو باب الكتابة العلمية للتاريخ[31].

**أما المعنى الثالث** : فيعود به " هرنشو " إلى الأصل الذى اشتق عنه لفظ " التاريخ "، وهو المعنى الذى يفيد " البحث " أو " التعلم بواسطة البحث" أو " المعرفة التى يتوصل إليها عن طريق البحث ". فالمعنى المستتر هنا هو الاستقصاء والبحث، وطلب الحقيقة. وبهذا المعنى يكون " التاريخ " علماً، وإلا فليس بشىء على الإطلاق [32] .

وخلاصة القول، أن " التاريخ " ينفع فى العظة والعبرة ، فنحن ندرس تاريخ الدول والملوك لنتعلم، وندرس سير الأنبياء لنتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا عند المزلات ومواطن الضرر، وهذه – فى رأينا – أعظم فوائد " التاريخ ". ونستطيع أن نقول، إن " التاريخ " هو وعاء الخبرة البشرية، أو هو المحاولة التى تستهدف الإجابة عن الأسئلة التى تتعلق بجهود البشرية فى الماضي ونستشف منها جهود المستقبل، ولا شك أن " التاريخ " بهذا المعنى يتحول إلى " علم " له أصوله يقوم على البحث فى الوثائق التاريخية، واستخلاص أحكام عامة من مجموعها؛ تتعلق بحياة الكائنات البشرية التى خلقت تلك الوثائق.

* * * *